المكون السيرذاتي في "عبر الزهور والأشواك-مسار امرأة" لزهور ونيسي

The autoubiographcal compoment in Through the roses and throns- A womans path by Zhour Wnissi

ط. د. فاطمة الزهراء بودواب*

أ. د. علي حميداتو♣

تاريخ الإرسال: 2020/07/15	تاريخ القبول:2020/09/28	تاريخ النشر:2020/09/30

الملخص:

تعد السيرة الذاتية نسيج سردي يتميز بالخصوصية، فهي تسعى لبث الوقائع عند كاتبها، كونها كتابة الأنا، ذلك بالنبش في الذاكرة بهدف استحضار الماضي والبوح به، عادة ما يكون هذا البوح محفوفا بهواجس الخوف والرهبة، ما يجعل الكاتب يتجنب الاعتراف بجنس عمله.

جاءت هذه الدراسة للبحث عن الميثاق السيرذاتي في "عبر الزهور والأشواك-مسار امرأة" لزهور ونيسي، والكشف عن مدى صحة الشروط التي وضعها فليب لوجون، ذلك بتحديد الميثاق السيرذاتي على المستوى الخارجي للنص (العنوان،الغلاف، التقديم)، وعلى المستوى الداخلي للنص (شكل الحكي، تطابق المؤلف/السارد/الشخصية)، هذه العناصر التي تدعم الميثاق المنجز في النص، إضافة إلى رصد الفضاء الذي تحركت فيه الشخصيات والأحداث.

الكلمات المفتاحية: سيرذاتية؛ ميثاق سيرذاتي؛ فضاء سيرذاتي؛تجنيس؛ زهور ونيسي

Abstract:

In this research paper we wanted to shed light on the break of genre borders in the Algerian novel. This latter has lead to a fusion of genres like

المؤلف المرسل: فاطمة الزهراء بودواب/ Efz.boudouab@univ-blida2.dz

* مخبر الدراسات الأدبية والنقدية/ جامعة البليدة 02 / efz.boudouab@univ-blida2.dz

♣ مخبر الدراسات الأدبية والنقدية /جامعة البليدة 02 / alihamidatou41@gmail.com

fiction , history, and autobiography under the cover of the novel .Our ain is to study the problematic of genre ‘s fusion in « Through the Roses and Throns- the path of a woman » by Zhour Wnissi. We have dealt with the textual thresholds and their role in classfying the text , giving more importance to autobiographiecal elments and their accuracy in this literaru work despite the fact that the author has tried to avoid using genre’s fusion .

***Key words**:* autobiography ; textual thresholds ; autobiography act ; elements of autobiography; Algerian novel .

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊

1. مقدمة:

تمارس المرأة العربية نوعا من الكتابات النثرية كانت وما تزال تستقبل بشكل من أشكال الحذر والحرج في المجتمعات العربية، ويتميز أسلوب بعض الكاتبات بالجرأة والكشف عن الذات وهما صفتان ليستا مألوفتين في الكتابات العربية خاصة كتابات المرأة، وهو ما يعرف بالسيرة الذاتية التي أصبحت تنافس الفنون الإبداعية الأخرى وتفرض نفسها على الدارس، لأنها صورة لتجربة إنسانية تحمل الكثير من الواقعية، حيث أثارت جدلا في الوسط الأدبي العربي وذلك من خلال التضارب في المصطلحات والمفاهيم حول نشأتها وتطورها وتداخل الأجناس فيها مما يولد أنواعا أدبية أخرى، فأصبحت بهذا مادة دسمة للباحثين.

من أشهر الكاتبات في الجزائر اللاتي اشتهرن بهذا الفن زهور ونيسي، فقد كتبت أجزاء متفرقة من سيرتها في بعض أعمالها "من يوميات مدرسة حرة"، وقد جمعت مسار حياتها في عملها الأخير الموسوم بـ "**عبر الزهور والأشواك-مسار امرأة**" الذي وقع اختيارنا عليه، كيف عبرت زهور ونيسي عن أناها في عملها هذا؟ هل حققت على مستوى الكتابة السردية تطابقا بين السارد والمؤلف والشخصية؟ لماذا تهربت زهور ونيسي من وضع علامة التجنيس؟

إن القارئ لعمل زهور ونيسي "عبر الزهور والأشواك" يلحظ وجود إشارات على أنه سيرة ذاتية، وذلك عن طريق البحث عن هوية النص التي تتحدد من خلال النص ذاته، من خلال المعاهدة النصية التي تعتمد على هوية الأسماء في النص وتوثق العلاقة بين

الكاتب، السارد، والشخصية الرئيسية وتتحدد هويتهم في اسم المؤلف الذي يظهر على الغلاف، هذا ما نسعى إلى الكشف عنه في هذه الدراسة، وذلك بتصنيف هذا العمل في خانة السيرة الذاتية وفقا للشروط التي وضعها الناقد الفرنسي فليب لوجون، معتمدين في ذلك على المنهجية التالية: تجليات الميثاق السيرذاتي على المستوى الخارجي للنص بداية بالعنوان، الغلاف، ثم المقدمة، ثم على المستوى الداخلي للنص شكل الحكي، وتطابق المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية، واهتممنا في المحور الثاني بالفضاء السيرذاتي، قمنا من خلاله برصد الأمكنة التي تحركت فيها الشخصية ومدى ارتباطها بها، أضف إلى ذلك الزمن الذي وظف بتقنياته (الاسترجاع والاستباق)، سبقتهما مقدمة وكانت الخاتمة وعاءً لنتائج البحث.

2-تجليات الميثاق السيرذاتي في "عبر الزهور والأشواك" لزهورونيسي:

تعد الكتابة السيرذاتية فعلا لاستحضار الذكريات واستعادة الماضي، بما يبعثه من لذة فنية لا تتوفر في مجالات إبداعية أخرى، ففي هذا الجنس الأدبي يعيش المؤلف زمنيين، زمن الحاضر بكل تفاعلاته وزمن الماضي بكل ذكرياته، وفي كلا اللحظتين انفعال نفسي يربط بين الكاتب والقارئ. انطلاقا من هذا يمكن القول أنه يصعب علينا تحديد مقومات السيرة الذاتية وهذا راجع إلى تداخل السيرة الذاتية بالأجناس الأدبية الأخرى وعلى الأخص الرواية، لو نظرنا إلى النص الذي بين أيدينا لتبين أنه يحكي تاريخ شخصية معينة (زهور ونيسي)، كان الهدف من هذه التجربة البوح والاعتراف بتجربة فردية بين أدوار عديدة، ودور المجتمع والظروف السياسية والاجتماعية في تلك الفترة، أول شيء يصادفنا في العمل هو العنوان والذي يمكن إدراجه في الميثاق الخارج نصي، فما المقصود بهذا الأخير؟

2-1 الميثاق السيرذاتي الخارج نصي:

اهتم الباحثون في مجال النقد بالكثير من القرائن الدالة على بنية النص وصارت بمثابة نصوص موازية للمتن، مثل: العنوان، والعناوين الفرعية، الإهداءات والحوارات...، ولا يمكن عزل هذه القرائن عن المتن رغم وجود ثلة من الباحثين نادت بعزل كل ما يحيط

بالنص (موت المؤلف)، واعتبرت أمل التميمي هذه القرائن بمثابة مواثيق خارج النص السيرذاتي، وتضع عدة عناصر للحكم على نص ما أنه سيرة ذاتية، وهي:

1- الدوافع المعلنة في مقدمات الكتب.

2-ذكر الأسماء- تاريخ الميلاد- الأصل والنسب- مراحل التعليم.

3-ذكر الممارسات الاجتماعية كالوظيفة، الانتماء السياسي، أو ذكر العلاقات بالشخصيات ذات المكانة الاجتماعية المعروفة.

4- الوسائل المتبادلة والخطابات الرسمية والمقالات الصحفية والحوارات والأعمال الأدبية المذكورة في النص، ومقطوعات من يوميات أو مذكرات قديمة والصور الشخصية[1].

تعمل هذه العناصر على تسهيل اكتشاف هوية النص السيرذاتي للقارئ، رغم محاولة الكاتب وتعمده إخفاء هذه المواثيق حتى يضيع القارئ في فخ الإيهام.

1-1-2 العنوان:

جاء العنوان مقسما إلى عنوان رئيسي (عبر الزهور والأشواك)، وعنوان فرعي أو تحتي (مسار امرأة)، وقد دلا على أبعاد زمنية لامست نشأة الكاتبة، ونضالها في الحياة... حاولت زهور ونيسي أن تثقل عنوانها حيث يعكس كل ما مرت به في حياتها، باعتباره ذو طبيعة مرجعية لأنه يحيل إلى النص، كما أن النص يحيل إليه، "فهو بنية وهمية تولد معظم دلالات النص، فإذا كان النص هو المولود فإن العنوان هو الولد الفعلي لتشابكات النص وأبعاده الفكرية والأيديولوجية وهكذا يكون عنوان نص شعري أو رواية ما[2].

إن المهتم بدراسة السيرة الذاتية يلحظ أن هناك أهمية خاصة للعنوان في السرد السيرذاتي، فهو يعد المفتاح الضروري لسبر أغوار النص، والسفر في دهاليزه الممتدة كما أنه الأداة التي بها يتحقق اتساق النص وانسجامه، وبها تبرز مقروئية النص وتتكاشف مقاصده المباشرة وغير المباشرة، وقد حظي باهتمام النقاد إلى حد وضع علم مستقل خاص به علم الترولوجيا، فهو علامة لسانية مرتبطة بالكتابة تؤشر على دلالة مؤجلة، تحيل إلى خارج ذاتها، يعرفه لوي هويك بأنه "مجموعة العلامات اللسانية من كلمات وجمل

وحتى نصوص قد تظهر على رأس النص لتدل عليه وتعينه، تشير لمحتواه الكلي، وتجذب جمهوره المستهدف"[3].

عَبْرَ: ظرف مكان مفعول فيه مبني على الفتح وهو مضاف، الزهور: مضاف إليه مجرور، الواو حرف عطف، الأشواك معطوف على ما قبله مجرور، وشبه الجملة (عبر الزهور) خبر، والمبتدأ محذوف تقديره هي، أو هذه.

استنادا إلى العنوان ودلالاته المعجمية سنحاول الإمساك بالدلالة التي كانت ترمي إليها الكاتبة، عبر تُمَثِل قناة العبور أي الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، الزهور قصدت بها مرحلة من حياتها قدمت من خلالها أحسن ما عندها وعاشت فيها متاع الدنيا وبهجتها أي أن الزهور هنا حملت معنى ايجابي، أما الأشواك رمت بها الكاتبة إلى الحديث عن العوائق والمشقات التي صادفتها من خلال مسار حياتها وحملت معنى سلبي، وربما حملت مفردة زهور دلالة اسمها.

إن العنوان بوصفه عقدا فإنه يقترن باسم مؤلفه سواء من الناحية الشكلية أو من ناحية مضمون النص، فالعنوان "ضرورة أدبية ولكن ضرورته تمتد في السيرة الذاتية لتشمل عملية ربط خاص بين الكتاب والكاتب نظرا لهيمنة وجود الذات الكاتبة في السيرة"[4]، نتيجة لما سبق نجد أن هذا العنوان بمثابة البوابة الأولى التي يعبرها المتلقي لينفتح على النص، وقد اتضح أن هذا العنوان يناسب محتوى هذا البناء السردي.

2-1-2 صورة الغلاف:

لم يكتف الدارس النقدي بدراسة المكتوب فحسب بل اهتم أيضا بالصورة والرسومات وغيرها من الرموز، فالصورة في حد ذاتها تحمل دلالات حقيقية وأخرى مجازية، وإذا أردنا الوقوف على غلاف "عبر الزهور والأشواك" والكشف عن علاقته بالنص باعتبار الغلاف أول ما يواجه القارئ مباشرة ويقع بصره عليه ويعطي القراءة الأولية المتوقعة لما يحمله هذا الكتاب بين دفتيه، فهو بمثابة "العتبة الأمامية للكتاب حيث تقوم هذه الأخيرة بعملية افتتاح الفضاء الورقي"[5].

إن المؤَلَف موضوع الدراسة "عبر الزهور والأشواك" طبعة خاصة بوزارة المجاهدين 2012، صادرة عن دار القصبة للنشر-الجزائر- جاء الغلاف الأمامي حاملا لصورة فوتوغرافية حقيقية لزهور ونيسي بتقنية التصوير الفوتوغرافي السينمائي، حاملة دلالات كثيرة وقد جاء اختيار الصورة موفقا إلى حد بعيد سواء كان بطلب من الكاتبة أو بتدخل من دار النشر، وقد جاء في وسط الغلاف بلون أحمر اسم الكاتبة –زهور ونيسي- ويليه عنوان العمل بلون أبيض –عبر الزهور والأشواك" ويتبعه العنوان الفرعي بلون أحمر – مسار امرأة- وفي أسفل الصفحة دار النشر،كل هذه المعطيات لها دلالات والأكيد أنها لم تكن بمحض الصدفة وبهذا نستنتج أن الغلاف عايش النص، فالصورة ميثاق وعقد قرائي شكلي من شأنها أن توجه القارئ وتربطه بالنص والذات الكاتبة المهيمنة في السيرة.

أما الغلاف الخلفي الذي يمثل "العتبة الخلفية للكتاب، وظيفتها عكس وظيفة الغلاف الأمامي وهي إغلاقه الفضاء الورقي"[6]. جاء اسم المؤلفة في الأعلى بخط كبير ذي لون أحمر على يمين الغلاف، وأسفله العنوان الرئيسي بخط كبير أسود اللون، تحته العنوان الفرعي بخط أصغر حجما من العنوان الرئيسي بنفس اللون، فزهور ونيسي هدفها مشاركة القارئ تجاربها ومقاسمته حياتها، يلي اسم المؤلفة والعنوان جزء من التقديم الذي كتبه زوج المؤلفة الأستاذ أحمد جابر والذي من خلاله يبين شغفه بهذا المؤلف الذي عايش صاحبته زمن كتابته، وهي بهذا أرادت أن تجسد تجربتها وتترك بصمة متميزة في هذه الحياة.

3-1-2 المقدمة:

تشكل المقدمة أول ما يصطدم به القارئ بعد الغلاف، إذ تعتبر من بين العتبات النصية المهمة في توجيه قراءة المتلقي وتدعيم الميثاق المنعقد، يصادفنا لبس تعيين جنس هذا العمل، من خلال التقديم الذي وضعه الأستاذ أحمد جابر (زوج الكاتبة)، مبديا ترددا في الإقرار بجنس العمل نجده يتساءل هل هو:"مذكرات؟ أو يوميات؟ أم اعترافات؟ هل هي سيرة روائية؟ أو هي كل ذلك مجتمعا في امرأة جزائرية...؟"[7]، رغم هذه الحيرة إلا أنه في موضع آخر من المقدمة يعتقد أن التفكير في كتابة هذا النوع من النصوص المستمدة من مراحل العمر يكون نتيجة "من مصالحة حقيقية مع الذات، مع النفس، لذلك أعتقد

اليوم أن رفيقة عمري قد تصالحت مع ذاتها ..."[8]، حاول الأستاذ أحمد جابر في هذا التقديم أن يمرر الكثير من الإشارات الدالة على أن زهور ونيسي "تكتب كل شيء تذكرته، أو خطر ببالها، أن تكسر كل الطابوهات، لأن تجربتها الآن أصبحت ملكا للآخرين..."[9]، سنحاول الإجابة عن التساؤل الذي وضعه المقدم، بتوضيح مبررات التجنيس التي غيبت عمدا من طرف الكاتبة في هذا العمل، فالقارئ بمجرد تصفحه للعمل يمكن أن يلامس جنسه دون أن يكون المؤلف مجبرا على تحديد جنس عمله.

2-2 الميثاق السيرذاتي الداخل نصي:

عدَّ فليب لوجون الميثاق شرطا أساسيا لتحديد طبيعة نص السيرة الذاتية، لأن هذه الأخيرة مبنية على الثقة أي أن النص يجب أن يتضمن "اعتذارات وتوضيحات ومقدمات، وإعلان النية وهذه كلها إنما شعائر لإيجاد اتصال مباشر لذلك تأتي أهمية الميثاق في كونه نوعا من العقد يبرمه المؤلف مع القارئ يتم بموجبه تحديد نوع القراءة"[10]، هذا الوعد الذي يقطعه الكاتب منذ البداية على نفسه يخص به القارئ مضمونه أن ما سيقوله في نصه هو سرد لحياته الشخصية، وقد يأتي هذا العقد مباشرا وصريحا مبرما بين أطراف العملية الإبداعية (الكاتب، النص، المتلقي)، أو ضمنيا بواسطة مؤشرات مبثوثة في ثنايا النص، وفي مُؤلَف زهور ونيسي هذا ميثاق صريح وعهد تعلن فيه الكاتبة عن نيتها في سرد حياتها، وحياة الناس الذين شكلوا زهور ونيسي، ونعني بهذا التصريح باسم المؤلف داخل النص وذلك من خلال "تطابق اسم السارد والشخصية المركزية داخل السرد مع اسم المؤلف الموجود على غلاف الكاتب وفي الواقع"[11].

2-2-1 تطابق المؤلف/ السارد/ الشخصية الرئيسية:

يعد التطابق بين المؤلف والسارد والشخصية الرئيسية شرطا أساسيا في السيرة الذاتية لا يمكن الإخلال به، وهو ما يعرف بالهوية عند فليب لوجون، لأن هذا التطابق له دور مهم في تحديد الجنس الذي ينتمي إليه النص الأدبي، كما أن عدم تطابق هذا الثالوث يؤدي إلى تداخل النص مع أجناس أدبية أخرى، وحسب فليب لوجون " إما أن يكون أو لا يكون، لا وجود لدرجة ممكنة"[12]، أما يحي إبراهيم عبد الدايم فيرى أن "التطابق بين اسمي

الراوي والبطل والمؤلف دال على أن العمل سيرة ذاتية"[13]، هذا التطابق بين العناصر الثلاثة قد يكون واضحا يظهر من خلال عقد صريح أو أي عبارة يدرجها صاحبها في نصه، وقد يغطي هذا التطابق شيء من الترميز والتلميح.

كل هذه العناصر الموجهة للقارئ تفتح أمامه مجالا نحو الذات ومسيرتها، وهذا ما يجعل من القارئ على اختلاف مداركه منذ العنوان "عبر الزهور والأشواك-مسار امرأة" يصب معظم اهتمامه على المؤلفة، وبعد الولوج إلى عوالم النص يكتشف ذاتا أخرى شديدة الصلة بذات المؤلف، إنها زهور ونيسي التي تبوح بتفاصيل حياتها ومواضيع تخص المرأة والمجتمع من خلال قولها: "قررت أن أكسر كل الطابوهات وأقول كل شيء بصدق وأمانة لأن ما سأكتبه في هذه السيرة إنما هو وثيقة اجتماعية تخص المرأة والمجتمع"[14]، نجد هنا تطابق السارد والشخصية، وبعد حضور الذات عنصرا فعالا في تحقيق الميثاق، فعند الإطلاع على النص الذي بين أيدينا والوقوف على حياة زهور ونيسي وجدنا تطابقا واضحا في سرد الأحداث والتواريخ وهذا ما بَيَّن تطابق المؤلف والسارد، إذا يتحقق التطابق بين السارد/ المؤلف/ الشخصية الرئيسية إذ نجد اعترافا ضمنيا في ثنايا النص، حيث تكشف الكاتبة عن نفسها من خلال تصريحها بشخصيتها "و زهور هاته التي تكتب عرفت النور في إحدى قصبات هذه المدينة..."[15]، لقد تجسد هنا الحضور الفعلي للكاتبة من خلال ذكرها لاسمها الحقيقي.

نلاحظ أن التطابق عند فليب لوجون له بعد إجرائي حاسم فلكي تكون لدينا سيرة ذاتية لابد من تطابق النص الحكائي بين ثلاثة أنواع من الأنا، وإضافة إلى "الأنا" كمؤلف حقيقي (كاتب)، للعمل الأدبي ومبدع له هناك أيضا "الأنا" كسارد ينبثق عن الحاضر، ثم "الأنا" ككائن سيرذاتي وهو كما يقول حاتم الصكر يعود إلى الكائن السيري[16] ، نتيجة لما سبق يمكن القول أن التطابق محقق في "عبر الزهور والأشواك".

2-2-2 الضمير:

إن أساليب السرد التي تدل على علاقة التطابق الموجودة بين العناصر الثلاثة المؤلف/السارد/الشخصية الرئيسية كثيرة، منها ضمير المتكلم الذي يمثل أسلوبها الأمثل،

فمن خلاله يتحقق التطابق التام ولا يترك مجالا للشك، نجد الكثير من الكتاب يوظفون نوعا آخر من الأساليب كالسرد بضمير الغائب، وذلك بهدف خلق مسافة بين المؤلف والشخصية ليقع المتلقي في توهم الاختلاف وعدم التطابق بين المؤلف والشخصية، يقول عبد المالك مرتاض إن "استعمال ضمير المتكلم نشأ مواكبا مع ازدهار أدب السيرة الذاتية فكأنه امتداد لها أو كأنها امتداد منه"[17]، كتبت زهور ونيسي سيرتها هاته بضمير المتكلم تقول:" وأنا أفكر في الكتابة عن دور المرأة في ثورة وحياة الجزائر..."[18]، كما أنها تتحدث عن نفسها "عرفتُ النور كحبة تتوسط عقدا من إخوة وأخوات فلا أنا بالبكرية... ولا أنا بالأخيرة..."[19].

وبما أن (الأنا) المسرودة هي في الآن نفسه (الأنا) الساردة التي هي بالنتيجة (أنا) المؤلف على اعتبار التطابق المفترض بين الأنواع الثلاثة[20]، يشير السرد بضمير المتكلم إلى أن الشخصية الكاتبة هي صانعة الحدث وليست مجرد راوٍ له، وكأن الكاتبة تريد الكشف عن شخصيتها واثبات أن عملها هذا سيرة ذاتية، لأن الأنا تحيل مباشرة على الذات، يمكن القول أنا ضمير المتكلم أنا صوت سردي ناطق بهموم الذات وهي تستذكر ماضيها البعيد، لهذا عد الضمير من الركائز المهمة في بناء النص السيرذاتي.

من خلال ما تقدم نستخلص أن الميثاق السيرذاتي يشكل الحد الفاصل بين السيرة الذاتية والأجناس الأدبية الأخرى، فمن خلاله تتحدد هوية النص إذا ما كان سيرة ذاتية، وفي هذا العمل الذي بين أيدينا نجد الميثاق تجلى في العنوان بداية، ثم الغلاف الذي حمل صورة زهور ونيسي، أضف إلى ذلك المؤشرات التي كانت ضمن التقديم الذي كتبه زوج الكاتبة، والتطابق الذي تحقق بين الثالوث (المؤلف/السارد/الشخصية الرئيسية)، باستعمال ضمير المتكلم "أنا".

3-تشكل الفضاء السيرذاتي في "عبر الزهور والأشواك":

يقترب مفهوم الفضاء السير ذاتي من الفضاء الروائي، اعتبارا أن السيرة الذاتية تستعير تقنيات الرواية، إذ أنها "من أقرب الأنواع الأدبية إلى الرواية بصورة عامة وإلى السيرة الذاتية بصورة خاصة فلا فرق بين النوعين في طرائق الكتابة إذا حللنا النصوص

تحليلا داخليا على رأي فليب لوجون الذي ذهب إلى أن الفرق بين النوعين يكون فقط في شكل الميثاق الذي يعقده الكاتب مع القارئ"[21]، من هنا يمكن أن نتبنى الفضاء الروائي كمفهوم للفضاء السير ذاتي، إذ لا يمكن الفصل بين الزمان والمكان في الفضاء السير ذاتي، ذلك أن العلاقة التي تربط بينهما متينة، فلا يمكن لعلاقات الزمن أن تعطي دلالتها إلا في المكان ولا يمكن إدراك المكان إلا في سياق الزمان وبين الفضائيين الزماني والمكاني يأخذ الملفوظ الحكائي بعده المادي والمعنوي، فهما يسهمان في تحقيق واقع النص وإعطائه نكهته المميزة كما يؤديان معا وظائف خاصة داخل العملية السردية.

1-3 المكان:

يعتبر المكان أساس البنية السردية فلا يمكن أن يكون حدث من دون مكان، يعرفه الشريف حبيلة بأنه:" ليس حيزا جغرافيا هندسيا فقط، إنما هو حامل تجربة إنسانية تعيش في ذاكرة كل إنسان، يتذكرها من حين إلى حين ويجسدها المبدع في كتاباته في كل أبعادها"[22]، والمكان نوعان مفتوح ومغلق ولكل منهما دلالة، فالمفتوح يحمل معاني الراحة، السكينة والهدوء، ويبعث في النفس الراحة والأمان، عكس المكان المغلق الذي يشعر صاحبه بالضيق و القلق، حيث يبعث في النفس الألم والقهر.

3-1-1المكان المغلق:" هو الفضاء الضمني المجرد الذي تحده أبعاد هندسية وليس له قوة تعبيرية، أو بعد تأويلي فهو عبارة عن مساحة خالية يتصف بالمحدودية حيث أن الفعل فيه لا يتجاوز الإطار المحدود ويجسد هذا الصنف من الفضاء صورا لأماكن متعددة مألوفة مثل: البيت، الغرفة وتتميز هذه الصور بمميزات أهمها علاقات الألفة والدفء، وقد تكون مميزات سلبية معارضة"[23].

البيت: يعد المكان الذي تأوي إليه كل الخلائق بحثا عن الراحة، يعرفه غاستون بشلار"البيت جسد وروح وهو عالم الإنسان الأول"[24]، وقد كان فضاء البيت بؤرة اهتمام جل كتاب السيرة الذاتية لأن "... البيوت و المنازل تشكل نموذجا ملائما لدراسة قيم الألفة ومظاهر الحياة الداخلية التي تعيشها الشخصيات، وذلك لأن بيت الإنسان امتدادا له"[25]، فكان لزهور ونيسي بدورها وقفة وصفية لفضاء البيت الذي تعده مكان للألفة تسترجع

فيه البطلة الكثير من ذكرياتها في كل ركن منه " في بيتنا الكبير هذا، والذي تحتل أسرتنا فيه مع بقية الجيران الآخرين، غرفة مستطيلة الشكل ذات نافذة تطل على داخل الدار، وأخرى أصغر تطل على الزقاق المحاذي لزقاقنا في نفس الحارة ..."[26].

هكذا كان فضاء البيت منفتحا على بيوت أخرى تشكل في مجموعها دارا كبيرة، حتى في استخدام هذا المصطلح و الوقوف عند الوصوف الخاصة به نتذكر جو العيش في أبرز الأعمال الأدبية الجزائرية "الدار الكبيرة" لمحمد ديب، إذا هذه حقيقة الحياة في فترة الاستعمار التي تقوم على التلاحم الموجود بين أفراد الأسر، لقد جاءت إشارات الكاتبة إلى بيتها متكررة في عملها إذ يمثل عندها مكان الراحة والاطمئنان، حيث في سردها انتقلت من بيت العائلة إلى بيت زوجها الأول ثم إلى بيت زوجها الثاني.

الفندق: هو أحد الأماكن المغلقة التي يستقر فيها الإنسان طلبا لقضاء المصالح، فالإقامة فيه مؤقتة، دليل ذلك قول زهور:" لكنني وأنا بالفندق سهرت طويلا وأنا أحفظ وأرتب في ذهني بعض الأفكار اللازمة والمدروسة للاعتماد عليها في الحديث بحضرة ملك لأول مرة في حياتي"[27]، (الملك حسين بن طلال عاهل الأردن)، لقد مثل الفندق للكاتبة مكان إقامة غير دائمة تستقر فيه عند سفرها لقضاء أشغالها.

المكتب: مكان مخصص للعمل ذكرته الكاتبة في مدونتها عدة مرات لأنها شخصية عاملة تتوجه إليه من أجل العمل، فهو مكان مغلق تغادره وقت انتهائها من العمل، تقول: "المهم أصبح لي مكتب، وجهاز هاتف كنت أستقبل فيه أعضاء تحرير المجلة"[28].

السجن: إن الحديث عن السجن معناه التأهب لانفتاح نافذة الألم و الضياع، فهو عالم مفارق لعالم الحرية خارج الأسوار، وقد رأى حسن بحراوي أنه يشكل "مادة خصبة للروائيين في التحليل وإصدار الانطباعات التي تفيدنا في فهم الوظيفة الدلالية التي ينهض بها السجن كفضاء روائي معد لإقامة الشخصيات خلال فترة معلومة، إقامة جبرية، غير اختيارية في شروط عقابية صارمة"[29] وردت كلمة السجن في النص عدة مرات تحمل معاني مختلفة لكن أكثرها ما كان يدل على مرحلة الاستعمار الفرنسي وسلب حرية الأشخاص

"وكم كثرت في نهاية السنة الدراسية التلميذات الباكيات لأن آباءهن أو أمهاتهن، أخذوا للسجون أو المعتقلات"[30].

المسجد: مكان العبادة، يتميز بالراحة والطمأنينة الروحية، ذكرت الكاتبة زهور ونيسي المسجد عدة مرات "في عمق الحي يوجد جامع كبير متواضع ومزار في نفس الوقت"[31] فهو مكان مغلق يختلي فيه العبد من أجل فرائض التعبد، وهذا المكان عابر بالنسبة للكاتبة حيث أنها لم تذكر لها أي ارتباط به عكس الأمكنة الأخرى التي كانت مرتبطة بها.

المدرسة: وفيها تكسب العلوم في شتى المجالات، وقد مثل في العمل أول منصب تقلدته الكاتبة وقد حظي بالقسط الأوفر في سيرتها لأنه لم يقتصر على التعليم فحسب بل أخذ بعدا ثوريا أيضا، وتعدد ذكر المدرسة في السيرة الذاتية " المهم أنني كلفت بعد نيل الشهادة الابتدائية بمهمة بدت لي غريبة جدا وهي حراسة وتلقين تلميذات الحروف الهجائية في أحد فصول المدرسة الحرة في الحي"[32].

يتضح من هذا القول أن الكاتبة زاولت مهنة التدريس وهي متحصلة على شهادة الابتدائي فقط، وكان فارق العمر بينها وبين تلميذاتها لا يتعدى عدة سنوات فقط وبهذا كانت المدرسة محور اهتمام كبير في سيرتها، كما كانت مكانا لاستقبال الرسائل والأوامر من قيادة الثورة.

إضافة إلى مكان آخر "المجلة"، فالكاتبة هي أول من أسست مجلة نسائية "الجزائرية"، "في سنة 1970م دُعيتُ لتأسيس أول مجلة نسائية في الجزائر المستقلة"[33].

ذكرت الكاتبة المجلة في مواضع كثيرة، صاحبتها سعادة نابعة، فقد اهتمت بها ومنحت لها وقتا مكنها من الاطلاع على أسرار المجتمع.

3-1-2المكان المفتوح:

يوحي المكان المفتوح بالاتساع والتحرر، ولا يخلو الأمر من مشاعر الضيق والخوف لاسيما إذا كان المكان المفتوح في أمكنة المنافي والمخيمات ويرتبط المكان المفتوح بالمغلق ارتباطا وثيقا، لعل حلقة الوصل بينهما هي الإنسان الذي ينطلق من المكان المغلق إلى المكان

المفتوح توافقا مع طبيعة الرغبة دائما في الانطلاق والتحرر وهذا لا يتوفر إلا في المكان المفتوح[34].

المدينة: مثلت عند زهور ونيسي فضاءً سير ذاتيا بامتياز احتضنت "تجربة المرأة الذات الساردة والكاتبة بدءا ومسارا ونهايات"[35]، تحدثت زهور عن مدينة الجسور كما لم يتحدث عنها من قبل فالذين كتبوا عنها تحدثوا عن الأحجار، الجسور ... أما هي عن العطور، عن الناس والعادات والتقاليد، فهي اهتمت بالجانب المعنوي، وأفردت لها عنوان مدينة العطر والتاريخ "لذلك أجد أن لمدينتي قسنطينة كمكان حق الحب والولاء والتكريم علي وعلى أبنائها الذين أنجبتهم وشرفوها دين كبير كمدينة، كمسقط رأس، كنسب، كأصل، كأهل، كطفولة ..."[36].

هكذا ترتسم المدينة في مسار امرأة أبت إلا أن ترد جزءا مما قدمته لها مدينتها الساحرة مدينة احتضنت آمالها وأحلامها، انتصاراتها قبل انكساراتها "فقسنطينة بالنسبة لي حلم جميل، لذيذ في أسراره، مثير في حناياه وطياته، مشوق في لمساته وديع في أمانيه وعطائه، هيمان في هيامه ... إنها حلم خاص جدا جدا، ومنفرد أيما انفراد"[37]، إذا هي مدينة العراقة الحضارة عرفت فيها زهور نور الحياة.

الأحياء و الشوارع: تعتبر أماكن انتقال ومرور نموذجية فهي التي "تشهد حركة الشخصيات وتشكل مسرحا لغدوها ورواحها عندما تغادر أماكن إقامتها أو عملها"[(30)]، وقد شكل حي سيدي الجليس عند الكاتبة مسرحا "فهاهو سيدي الجليس الذي كانت فيه دارنا الكبيرة *دار القرقري* كان أحد هذه القصبات حيث البنايات ذات الطابع الإسلامي الأندلسي، والمساجد العتيقة بقبابها ..."[38]، إذا هو فضاء قسنطينة بكل ما يرمز إليه من أصالة وعراقة وهي أيضا وقفة تعريفية وتأريخية لهذه الأماكن (المعالم) في هذه المدينة التي حيرت القلوب قبل العقول بجمالها وسحر عمرانها.

تعددت أسماء الشوارع على لسان الكاتبة "كنا كنساء نجتمع كل مساء، نجتمع في مقر خصص لنا بشارع *منيير فيل* سابقا قرب قصر العدالة هذا الشارع الذي أصبح فيما بعد يحمل اسم الشهيد شريف حماني"[39].

المطار: يعد حلقة وصل بين الداخل والخارج، وهو المكان الذي يربط بين الشخص ووطنه، قد ذكرته زهور ونيسي في الكثير من المواضع، ومن بين المطارات الحاضرة في هذه السيرة "وصلنا إلى دمشق لكن بعد أربع وعشرين ساعة من التوهان في أروقة المطارات"[40]

من خلال ما سبق يمكننا القول أن المكان عنصر فعال في النص، فهو مسرح الأحداث، ذكرت زهور ونيسي في هذه السيرة الذاتية الكثير من الأماكن وتنوعت بين المغلقة والمفتوحة، هذا التعدد يدل على كثرة التجارب التي عاشتها الكاتبة.

3-2الزمن:

يعد الزمن عنصرا أساسيا في البناء السردي، يعرفه عبد المنعم زكريا القاضي "بأنه مجموع العلاقات الزمنية السرعة التتابع، بين المواقف والمواقع المحكية، عملية الحكي الخاصة بهما، وبين الزمان والخطاب المسرود والعملية المسرودة"[41]، سنعتمد في دراستنا للزمن في هذه السيرة على المفارقات الزمنية الاستذكار(الاسترجاع)، الاستباق (الاستشراف).

3-2-1الاستذكار:

تقنية من تقنيات الزمن حيث تتجلى في كل الروايات وذلك من خلال عودة السارد إلى الماضي أثناء سرد الأحداث، يدل جيرار جنيت بمصطلح الاسترجاع "على كل ذكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة"[42].

تجعل السيرة الذاتية من أحداث الماضي منبعا تغترف منه، وقد استندت زهور ونيسي إلى تقنية الاستذكار "طفولتي كانت طفولة سعيدة رغم الظروف الصعبة التي كانت تحيط بالطفولة كلها في بلادي"[43]، وفي موضع آخر تسترجع ذكرياتها مع جدتها و تروي لنا كيف تتعاطف معها الجدة بسعادة "كنت عندما تبرد يداي في فصل البرد والثلوج، تأخذهما بين كفيها المعروقتين، وتفركهما، وتنسف فيها من نفسها الدافئ"[44]، كما أنها تحدثت عن زواجها في سن مبكرة "في الثامنة عشرة خطبت وتزوجت وابني الوحيد الدكتور هشام كان ثمرة مباركة لهذا الزواج زواجي الأول و عمري لا يتعدى العشرين"[45].

3-2-2الاستباق:

من المفارقات الزمنية إذ هو "مخالفة لسير زمن السرد تقوم على تجاوز حاضر الحكاية وذكر حدث لم يحن وقته بعد"[46]، يعرفه عمر عاشور "الاستباق يشيع في روايات الذاكرة، كروايات السيرة الذاتية لأنا السارد المتجانس حكائيا مؤهل لإدراك مسار الأحداث منذ لحظة بدء الحكي كونه حينما يشرع في حكي جزء من حياته الخاصة يعرف الآن ما ستؤول إليه هذه الحياة لهذا من حقه أن يسبق سير الأحداث، ويمكن للاستباق أن ينطلق من العنوان المقرون بصفة، لأن الصفة هنا ستطيع متن الحكاية"[47].

ورد الاستباق في الرواية بشكل أقل من الاستذكار حيث تجلى في العناوين، فقد مهدت الكاتبة لأحداث عملها من خلال العنوان الرئيسي "عبر الزهور والأشواك- مسار امرأة"، فالقارئ لهذا العنوان من الوهلة الأولى يتنبأ بما يوجد في ثنايا النص حيث يضع في ذهنه أن الكاتبة عادت إلى ماضيها ودونت ذكرياتها وهذا ما يجعله يستبق مضمون النص قبل الولوج إليه، بعد العنوان الرئيسي نجد الاستباق في العناوين الفرعية حيث نجد الروائية وضعت عناوين مثل "عطر الحمام والوشم الأخضر" حيث تتحدث الكاتبة عن ذكرياتها مع والدتها وأخواتها و ذهابهن إلى حمام بن شريف وتصف هذا المكان وصفا دقيقا من الأرضية حتى السقف، وليس هذا فحسب بل وظفت تقنية الاستباق حتى في المتن "قائمة بأسماء الكثير من التلاميذ و التلميذات ومن بينهم التلميذ السعيد عبادو، والذي سيصبح فيما بعد وزيرا للمجاهدين"[48].

إن الزمن في هذه السيرة الذاتية زمن استرجاعي بالدرجة الأولى حيث أنها سيرة تتضمن في مجملها ذكريات الماضي الراسخة في الذاكرة الفردية، لتكون بذلك الاستباقات أقل حضورا، فقد جاءت على شكل عناوين من خلالها استطاع القارئ الولوج في أعماق السيرة الذاتية، والملاحظ أن الكاتبة زهور ونيسي استرجعت الكثير من الأحداث، كما أنها أهملت الفترة الأخيرة من حياتها.

4-خاتمة:

هي إذا سيرة جمعت بين البوح والاعتراف، الاسترجاع والتذكر، هي محطات مهمة في حياة زهور ونيسي التي لم تبخل على قارئها في نقل الكثير من التجارب المهمة في حياتها، والتي لم تزدها إلا عزما أكبر على التشبث بمبادئها من أجل خدمة وطنها، هي حقائق مريرة تنقلها بكل صدق ودون خوف.

والجدير بالذكر أن اختيارنا للموضوع لم يكن جزافا، إنما لاستجابته للمعطيات النظرية لمشروع فليب لوجون في السيرة الذاتية من جهة، ولسهولة الكشف عن الميثاق السير ذاتي من جهة أخرى، فقد تجلى الميثاق السيرذاتي على مستوى العنوان بوصفه أول علامة توضحه للمتلقي،الغلاف، يعد التقديم الذي وضعه زوج الكاتبة علامة على ذاتية الساردة التي تعلن منذ البداية على حضورها في هذا النص بوصفها الساردة للأحداث، كما أن التطابق الفعلي الذي تحقق بين الثالوث السارد/المؤلف/الشخصية الرئيسة كان العنصر الفعال في تحديد جنس العمل بما أنه حكي نثري ذاتي تجسد بضمير المتكلم أنا.

أضف إلى هذا الميثاق السيرذاتي، كذلك الفضاء الذي تتحرك فيه هذه الشخوص فضاء حقيقي متنوع، فقد اعتنت الكاتبة بتوظيف الفضاء المكاني والزماني واختيارهما بدقة تشعر القارئ وكأنه يعيش بهذه الأمكنة ويعاينها، وذلك بالاعتماد على الوصف الدقيق، والألفاظ المعبرة، وقد ارتبطت هذه الفضاءات بالحياة الخاصة للكاتبة، فكل المؤشرات تدل على اجناسية هذا العمل السير ذاتي بامتياز.

5. الهوامش:

[1]- أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص209.

[2]- عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق، بيروت،ط1، 2000، ص22.

[3] - عبد الحق بلعابد، عتبات النص (من النص إلى المناص)، منشورات الاختلاف،ط2، الجزائر،2008، ص67.

[4]- أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، ص 190.

[5]- محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، جامعة طيبة، المدينة المنورة، ط1، 2008، ص134.

[6] - محمد الصفراني، التشكيل البصري في الشعر العربي الحديث، ص137.

[7] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك- مسار امرأة، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012، ص 12.

[8] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك- مسار امرأة، ص11.

[9] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك- مسار امرأة، ص12.

[10] -خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية (في البئر الأولى وشارع الأميرات)، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، د.ط، 2000، ص 20.

[11] - خليل شكري هياس، سيرة جبرا الذاتية (في البئر الأولى وشارع الأميرات)،ص 22.

[12] - فليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي ترعمر حلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص24.

[13] - يحي إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ط، 1974، ص99.

[14] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك-مسار امرأة، ص 143.

[15] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك- مسار امرأة، ص20.

[16] - فليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ص 23.

[17] - عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، (بحث في تقنيات السرد)، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، 1998، ص67.

[18] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص180.

[19] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص 23.

[20] - جليلة الطريطر، مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مؤسسة سعيدان للنشر والتوزيع،2004، تونس، ص 217.

[21] - خليل شكري هياس، سيرة جبرا (البئر الأولى-شارع الأميرات)، اتحاد كتاب العرب، دمشق، ط1، ص117.

[22] -الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي، دراسة في روايات نجيب الكيلاني، عالم الكتب الحديث، ط1، أربد، الأردن، 2000، ص190.

[23] - عز الدين المناصرة، شهادة في شعرية الأمكنة-الجاحظية، العدد1، 1990،ص26.

[24] - غاستون بشلار، جمالية المكان، ترغالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات النشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1984، ص23.

[25] - حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء-الزمن-الشخصية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،1990، ص43.

[26] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص36.

[27] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص407.

[28] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص320.

[29] - حسين بحراوي، بنية الشكل الروائي، الفضاء-الزمن-الشخصية، ص55.

[30] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص166.

[31] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص52.

[32]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص132.

[33] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص317.

[34]- حفيظة أحمد، بنية الخطاب في الرواية الفلسطينية، منشورات مركز أوغاريت الثقافي، ط1، رام الله، فلسطين،2007، ص166.

[35]- بوشوشة بن جمعة، الرواية النسائية المغاربية، المغاربية للنشر والإشهار، ط1، تونس، 2003، ص114.

[36]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص17.

[37]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص17.

[38]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص51.

[39]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص203.

[40]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص402.

[41]- عبد المنعم زكريا القاضي، البنية السردية في الرواية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية، ط1، الجيزة، مصر، 2009، ص103.

[42]- جيرار جنيت، خطاب الحكاية –بحث في المنهج- تر محمد معتصم وآخرون، منشورات الاختلاف، ط1، المملكة المغربية، ص68.

[43] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص24.

[44] - زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص76.

[45]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص143.

[46]- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي-انجليزي-فرنسي، دار النهار للنشر، ط1، بيروت، لبنان، 2002، ص15.

[47]- عمر عاشور، البنية السردية عند الطيب صالح، (البنية الزمانية والمكانية في موسم الهجرة إلى الشمال)، دار هومة، الجزائر، 2010، ص21.

[48]- زهورونيسي، عبر الزهور والأشواك، ص132.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊